الفصل السادس والعشرون

التجارة

لقد كان الشرق الأدنى فى طول العصور التى نعرفها من تاريخه بعيداً جدا عن مبدإ تقسيم العمل ، وهو المبدأ الذى تقضى به الطبيعة ، والذى يجعل إنتاج الثروة من شأن الرجل ، والمحافظة عليها من شأن المرأة . ولم يستلفت نظر هيرودوت اشتغال النساء بالتجارة إلا بمصر حيث كُنَّ يَقُمْن بالبيع والشراء[1] . ويحكى المقدسى فى كلامه عن مدينة بيار بشمال إيران أن « السوق فى الدور والباعة نسوان »[2] . وقد لاحظ الرحالة ماركو بولو أن نساء التتر « يُعالجن كل أنواع التجارة »[3] . ونلاحظ أن الشعوب الحربية المتعاقبة كانت دائماً تنظر إلى التجارة نظرة الاحتقار . ويحكى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وكان أحسن من يعبر عن الروح الأولى للإسلام — أنه ذُكر أمامه حديث الاستئذان وكان قد نسيه ، وطلب البيِّنة عليه ، فلما جاءه به أبو سعيد الخدرى قال عمر : أخفى علىَّ من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ألهانى الصفقُ بالأسواق ، يعنى الخروج للتجارة[4] . وكان الأمويون أيضاً لا ينظرون للتاجر بعين التقدير ، ولم يكن هذا ناشئاً عن إشفاقهم مما أشار إليه عمر ، بل لأنهم كانوا جيلا من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع ، حتى لا نجد للتجار شأناً فى تاريخهم . وقد أحدث القرن الثالث فى هذا الباب انقلاباً كبيراً ، فلما جاء القرن الرابع أصبح

---

(١) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات .

(٢) المقدسى ص ٣٥٦ .

(٣) Marco Polo, I, 4 .

(٤) صحيح البخارى : كتاب البيوع .

التاجر الفنى هو ممثل الحضارة الإسلامية التى صارت من الناحية المادية مظهراً من مظاهر البذخ والأبهة ، وباعثاً على الاستطالة فى ذلك ، ففى أواخر القرن الثالث لم يترفع بدر بن حسنويه — وكان فى منصب من المناصب الجليلة فى الدولة — عن أن يبتاع خاناً بمدينة همدان ، ويفرده باسمه ، ويقيم فيه من يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة فى أعماله ، وقدّر أن ينال من وراء ذلك نحواً من ألف ألف ومائتى ألف درهم ، ولكن ذلك شق على أبى سعيد بن الفضل ، وكان ينظر فى أعمال همدان والماهين وسهرورد من قبل مجد الدولة ، وتصور أنه طريق لخروج ارتفاع البلد عن يده فوضع قوماً من الديلم على أن يقصدوا الرسول الذى أرسله بدر لعقد ضمان الخان على من يرغب فيه ويوقعوا به ، فقصدوه وكبسوا داره ، وأخذوا ما كان معه من المال[1] . وفى ذلك العصر انكمش بعض النشاط التجارى فى الأسواق ودور الصرافين ، ولكن كان فيها الكثير من الأساليب الخلابة والقدرة على استهواء الناس . ولما كان كلّ تاجر رجلا رحّالا فإن أثمان البضائع وأسعار أنواع النقود التى يجل عددها عن الحصر كانت تختلف وتتعقد وتتشابك على أيدى المغامرين من المتعاملين المهرة فى جميع البلاد ، مع اتساع نطاق الخبرة بالدنيا والمعرفة بأخلاق الناس . وكانت التجارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام ، وصارت هى السيدة فى بلادها ، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول فى التجارة العالمية ، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر فى البضائع الكمالية على الأقل . وكان التجار اليهود[2] الذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا يسمون عند المسلمين

---

(١) كتاب الوزراء ص ٤٧٨ .

(٢) يسمون الرهدانية ويقول سيمونسن Simonsen, Revue d, Et. juives, 1907 =

فى القرن الثالث الهجرى باسم مجرّد ، وهو « تجار البحر »[١] . وقد وصفهم المسلمون بأنهم يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من « فرنجة » الخدم والغلمان والجوارى والديباج والخبز الفائق والقراء والسمور ، ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى جدة والجار ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك ، ويرجعون إلى القلزم ، ثم يتحولون إلى الفرما ، ويركبون البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم ، وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة فباعوها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجاراتهم فى البحر الغربى ، فخرجوا بأنطاكية وساروا برا إلى الفرات فركبوا فى دجلة إلى الأبلّة إلى عمان والهند والصين ، وكانوا يتكلمون العربية والإفرنجية والفارسية والرومية ، وهم تجار الهند الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية[٢] . وبعد ذلك لا نجد فى القرن الرابع ذكراً لهؤلاء التجار الذين خلفوا التجار الشاميين الذين كانوا حتى العصور الوسطى يستوطنون نهر الرون ، وذلك لأن ظهور شأن التجارة الإسلامية ونماءها أخرج التجار الأجانب من البحار .

وكان الأمر الكبير الذى تمّ فى القرن الرابع الهجرى هو فتح الطريق التجارى إلى بلاد الروس فى الشمال . وكانت تمّ بعض العلاقات قبل القرن

= إنها نسبة إلى نهر الرون ، ولكن دى غوى لا يوافق على هذا التفسير الغريب De Goeje, Verslagen en Mededeelingen, Amsterdam P. 141, f. 1909, p. 253 . ورأى أنه غير وجيه . وقد تكلم عن سفن اليهود فى البحر الأبيض فى ذلك العصر (آخر القرن التاسع الميلادى) بلبولوس فى تاريخ شارل الأكبر ، فقال : يرى الانسان فى مدينة من مدن الشاطئ بغالة الغربونية سفنا يقول البعض إنها سفن يهودية ويقول البعض إنها أفريقية أو سفن لتجار بريطانيين Notker Balbulus, Karl. II, Kap. 14 (١) ابن الفقيه ص ٢٧٠ .

(٢) ابن خرداذبة ص ١٥٣ — ١٥٤ ، وابن الفقيه ص ٢١

الرابع بين بلاد الروس و بين بلاد الإسلام ، فقد وصف لنا ابن خرداذبة مسالك تجار الروس من بلادهم إلى بلاد الإسلام بقوله : « فأما مسالك تجار الروس ، وهم جنس من الصقالبة ، فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صَقْلَبة إلى البحر الرومى ، فيعشرهم صاحب الروم ، وإن ساروا فى تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشّرهم صاحبها ، ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون فى أى سواحله أحبوا ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية »[1] . وفى سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م حدث اتصال سياسى بين الخليفة و بين ملك أهل القلجا[2] ، وفى العام التالى أسلم هذا الملك وأسلم أهل بلاده[3]، وفى ذلك العصر تولى شؤون الجزء الشمالى الشرقى من مملكة الإسلام لأول مرة حكام أكفاء وهم آل سامان ، وكان لذلك أكبر شأن فى تاريخ الإسلام ، فإنهم حفظوا تخوم البلاد وساروا بها إلى النماء والمجد ، وضمنوا للتجار الأجانب ربحاً هادئاً ، ومعظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوروبا ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ، وأكثر من ثلثيها من نقود السامانيين[4] . وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر وفى أثناء الحروب الصليبية هى الطريق بين شمال أوروبا و بين الشرق[5] ، وكما أن الإسلام وجد طريقه إلى الشمال فكذلك نال فى المشرق بلاداً أخرى واسعة (انظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب) ؛ ففى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م أرسل ملك الصين يخطب ود نصر بن أحمد السامانى ، ويطلب مصاهرته ؛ فرضى نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين ،

(١) ابن خرداذبة ص ١٥٤ ، وابن الفقيه ص ٢٧١ . (٢) وذلك بإرسال ابن فضلان ، وقد وصل إلينا بعض ماحكاه . (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ .

(٤) Heyd, Levanthandel, I, 69 .

(٥) Schlumberger, Epopée byzantine, s. 9.

فتح هذا أمام التجار المسلمين الطريق إلى الصين[١] ، وفى القرن الرابع الهجرى أضيفت إلى مملكة الإسلام أجزاء كبيرة من بلاد الهند ذات شأن تجارى عظيم . هذا وقد كان فى بلاد الصقالبة الشمالية من جهة أخرى قلاقل شديدة فى القرن الرابع ، وذلك بسبب زحف النرمانديين الذين ركبوا نهر الفلجا وساروا فيه عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م ، وعام ٢٩٧ هـ — ٩١٠ م ، وعام ٣٠٠هـ — ٩١٢ م ، ويقال إنهم فى المرة الأخيرة كانوا خمسمائة سفينة على كل منها ثلاثمائة رجل ، فوصلوا بحر الخزر فنهبوا كل شىء ، وفى عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م خربوا عاصمة الخزر[٢] . وربما كان هـذا هو السبب فى انقطاع الزيارات الودية بين بلادهم وبلاد الإسلام ، فى ذلك العصر ، ولكن ظل تجار الفرس يذهبون إلى الخزر كما كان الحال من قبل[٣] ، وأصبح الخزر هم الوسطاء فى اجتلاب البضائع من الشمال ، وكان الشىء الوحيد الذى تصدره بلاد الخزر مما تنتجه هو غرا السمك ، أما ما كانوا يصدرونه من العسل والشمع والوبر ، فكان يحمل إليهم من ناحية الروس[٤] . وكان تجار اليهود يستأثرون بأهم ما كانت تصدره أوروبا ، وهو الغلمان والجوارى ، وفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٥ م كان يختلف إلى مدينة براج — وكانت أكبر سوق للرقيق فى أوروبا — مسلمون ويهود وترك من بلاد الترك يحملون البضائع وقطع الذهب البوزنطية ، ويعودون بالرقيق والصفيح والفراء[٥] . وقد نشأ عن هذا التقدم التجارى ازدهار الجاليات الإسلامية فى كثير من الأطراف التى تغلب عليها غير المسلمين ، فكان يرأسها مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم ، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا المسلمون وإن

(١) معجم البلدان لياقوت تحت كلمة صين نقلا عن أبى دلف .

(٢) ابن حوقل ص ٢٨١ . وانظر Dorn, Caspia, Mém. Acad. St. Peteribourg, 1875 .

(٣) ابن رسته ص ١٤١ . (٤) ابن حوقل ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٥) Westberg Ibrahim Ibn Ja'qûbs Reiseberichte s. 53, 155

قلّوا ، وذلك مثل بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وسيمور (الهند)[١] . وكان بالصين أيضاً جالية إسلامية[٢] ؛ بل كان فى كوريا أيضاً جالية من التجار المسلمين[٣] . أما فى بوزنطة فكان لا يُسمح لتجار المشرق أن يقيموا أكثر من ثلاثة أشهر[٤] ، وكانت أكبر جالية للمسلمين فى الإمبراطورية الرومانية تقيم بمدينة أطرابزند[٥] .

وقد حكى لنا كُسْماس Cosmas الرحالة الهندي فى منتصف القرن السادس الميلادى خبر مناظرات جرت فى مجلس ملك سرنديب بين تاجر رومى وآخر فارسى أراد كل منهما أن يثبت أن ملك بلاده أقوى ، وغلب التاجر الرومى صاحبه آخر الأمر ، وذلك بأن أخرج قطعة ذهبية جميلة من العملة البوزنطية التى يُتعامل بها فى جميع البلاد ؛ على حين أن الفارسى لم يستطع أن يخرج إلا عملة من الفضة ، ومن الصحيح فى هذه الحكاية أنه كان بين البوزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط ، ويتخذوا العملة الرومية الذهبية عملة لهم[٦] ، ولهذا شاع فى بلاد الإسلام التى كانت تحت حكم الرومان من قبل العملة الذهبية ، على حين أن بلاد الفرس كانت عملتها الجارية الدراهم الفضية ، وقد ذكر يحيى بن آدم (المتوفى عام ٢٠٣ هـ—٨١٨ م) أن العملة فى العراق هى الدرهم وفى الشام الدينار وفى مصر الدينار أيضاً[٧] ، ونلاحظ أنه فى هذا العصر الذى ندون تاريخه كانت العملة الذهبية تنفذ وتنتشر شرقا ، وهذه

---

(١) ابن حوقل ص ٢٢٥ ، و Merv. de l'Inde, 142, 144, 161

(٢) انظر الفصل الخاص بالملاحة البحرية . (٣) ابن خرداذبة ص ٧٠ .

(٤) Vogt, Basile, I. s. 393 (٥) المقدسى ص ١٤٨ .

(٦) Oelzer, Byzantinische Kulturgeschichte, 1909, s. 79 وكذلك كان بين بوزنطة وبين كلودويج ملك الفرنجة معاهدة كهذه .

(٧) كتاب الخراج طبعة جوينبول ص ٥٢ .

آكد علامة من علامات وحدة التجارة الإسلامية . ففى أول القرن الثالث الهجرى كانت عطايا الخليفة تحسب بالدراهم ، وفى أوائل القرن الرابع الهجرى دخلت العملة الذهبية بغداد وصار حساب الحكومة بالدنانير ، وقد تمت الخطوة الحاسمة بين عامى ٢٦٠ هـ — ٨٧٤ م و٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ، ففى السنة الأولى ذكر ارتفاع العراق بالدراهم الفضة[١] . أما فى الثانية فقد ذكر بالذهب[٢] ، وقد زال مع زوال الحساب بالدراهم الفضية حساب الأشياء بنوعها ، وهذه نقطة طريفة ، ففى عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٤ م كان يذكر فى ارتفاع العراق مقدار الحاصلات من الحنطة والشعير مثلا وما يقابلها بالدراهم . أما فى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م فقد بطل ذلك ، ويتبين من قانون نشره رؤساء اليهود بالعراق فى عام ٧٨٧ م أن كثيراً من الثروة صار يعتبر ثروة منقولة ، ويقضى هذا القانون بأن تؤخذ للوفاء بتسديد ديون المدين الثروة المنقولة لا الثروة الكبيرة غير المنقولة وحدها[٣] ، وكانت المتلكات الفردية مع هذا تحصى بالدراهم والدنانير ، فمثلا ذكر فى ترجمة ابن يحيى ثعلب النحوى اللغوى المتوفى عام ٢٩١ هـ — ٩٠٤ م أنه خلف أحداً وعشرين ألف درهم وألفى دينار وداكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار[٤] . ولكن العطايا التى كانت توهب للشعراء مثلا كانت دراهم على الطريقة القديمة[٥] ، ولا شك أن هذه العطايا لم يكن ينظر إليها كما ينظر لمسألة تجارية ، وقد انتهى إلينا شىء من شعور الناس بتقدير نوعى النقود القديم والجديد ، فأما البلاد الشرقية لمملكة الإسلام فقد ظلت تتعامل بالدراهم الفضية حتى فى أثناء القرن الرابع الهجرى ، فيقول الأصطخرى إن « نقود أهل بخارى الدرهم ولا يتعاملون بالدينار وهى

(١) قدامة بن جعفر ص ٢٣٩ .

(٢) Kremer, Einnahmebudget

(٣) Graetz, Geschichte der Juden V, 4 Aufl. s. 196

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٥٣ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

كالعرض» وربما كانت الدراهم نقداً جاريا فى بعض المدن الكبرى[١]، أما فى فارس فكان البيع والشراء بجميع فارس بالدراهم وكانت الدنانير عندهم بالعرض[٢] .

وقد راعى صغار الملوك الذين ضربوا العملة لأنفسهم تحت رئاسة الخليفة أو مستقلين عنه أن يخرجوا للتعامل أكبر عدد ممكن من أصناف العملة ، وكان فى قوائم أسعار العملة التى بين أيدى الجهابذة فى ذلك العصر شىء من الطرافة ، كما نستطيع أن نستنتج ذلك من أصناف العملة التى ذكرها المقدسى[٣]، وكان الدينار فى القرن الرابع الهجرى يساوى نحو الأربعة عشر درهما[٤] . وكان من أثر انفصال القسم الشرقى من مملكة الإسلام عن قسمها الغربى الذى كان وحده يتمتع بخزائن الذهب أن ارتفعت أسعار العملة الذهبية فى المشرق ارتفاعا هائلا فى أواخر القرن الرابع . والمقريزى قد بالغ حين قال إن الناس فى مصر لم يرد ذكر الدرهم على ألسنتهم لأول مرة إلا أيام الفقر التى كانت فى عهد صلاح الدين ، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدنانير[٥] . وفى أواسط القرن الرابع ضرب ركن الدولة بن بويه ديناراً نصفه أو أكثره من النحاس ، وكان هذا الدينار يقبل فى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م بثلث قيمة الدرهم المعتاد[٦] . وفى عام ٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م حاولت حكومة بغداد أن تقوى العملة البغدادية فأمر الخليفة بترك التعامل بالدنانير المصرية المغربية ، وأمر الشهود ألا يشهدوا فى كتاب ابتياع ولا إجارة ولا مداينة تذكر فيها الدنانير المغربية ؛ فعدل الناس عن هذه العملة إلى غيرها[٧] . ومن جهة أخرى

---

(١) الأصطخرى ص ٣١٤ ، ٣٢٣ . (٢) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٣) انظر أيضا رسائل المسعودى طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ص ١١ .

(٤) أمدروز (تعليق رقم ١) فى كتاب الوزراء ص ٣٦ وفى عام ٣٣٩هـ — ٩٤٣م ضرب ناصر الدولة بن حمدان دينارا كاملا قيمته ثلاثة عشر درهما ، على حين أن الدينار كان يساوى من قبل عشرة دراهم JA, Sér. VII, Bd. 15, 259 ؛ وكان الدينار أحيانا يساوى خمسة عشر درهما (عجائب الهند ص ٥٢ .)

(٥) JA. Sér, VII, Bd. 14, P. 524 (٦) Amedroz, JRAS, 1906, 475

(٧) المنتظم لابن الجوزى ص ١٩١ / .

خفّ وزن الدراهم الفضية حتى صار الخمسة وعشرون والأربعون والمائة وخمسون أحيانا بدينار[١] ، وفى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م شغب حرس الديلم وقصدوا دار الوزير ثائرين لفساد العملة الذهبية[٢] ، وكان للعملة الزائفة ثمنها المحدّد جهاراً وإن كان زهيداً كما هو الحال اليوم ، وكانت الدراهم المزيّفة تسمى المزبّقة[٣] ، وكانت بمكة مثلا أربعة وعشرون بدرهم من الدراهم النقية ، وكانت تبطل يوم السادس من ذى الحجة إلى آخر الموسم[٤] . وكان البعض يزيّف الدراهم النقية كما يفعل المزيّفون فى عصرنا ، ولكن لما كانت العملة توزن فلم يكونوا يردونها بل كانوا يصنعون عملة يتوفّر لها الوزن الصحيح مستعيضين عما ينتقصونه من الذهب باستعمال الزئبق أو الأنتيمون[٥] .

وكانت الفلوس تتدرج على أساس القاعدة السداسية ، فكان الدرهم يساوى ستة دوانق ، وكان الدانق اثنى عشر قيراطا ، والقيراط أربعة وعشرين طسوجا ، والطسوج ثمانية وأربعين حبة ، وكانت العملة الفضية المكسّرة تستعمل فى المعاملات اليسيرة رغم أن ذلك كان يلقى الاعتراض دائماً[٦] .

وكانت المعاملات الضخمة تستدعى وسائل للدفع ، مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، بعيدة عن متناول اللصوص[٧] . ومعظم هذه الوسائل يحمل أسماء فارسية ، فيذكر عن أحد العلماء أنه سافر إلى الأندلس ومعه سفتجة وخمسة آلاف درهم نقداً[٨] . ويحكى عن ناصر خسرو الرحالة الفارسى أنه لما خرج من أسوان بمصر

---

(١) كتاب الوزراء ص ٣٦ هامش رقم ١ . (٢) كتاب الوزراء ص ٤٠٢ .

(٣) مادة زبق عند الجوهرى ، وكانت الفضة التى تضرب تذاب مع الزئبق انظر Amedroz, JRAS, 1906, p. 479 (٤) المقدسى ص ٩٩ .

(٥) Abu Jûsuf, JA. Sér, VII, Bd., 19 p. 29

(٦) نفس المصدر ص ٢٥ — ٢٦ .

(٧) يجد [illegible] عند Die Suftaga und Hawala der [illegible]

Araber, Jur. Diss. Königs. berg. 1899 (٨) مصارع العشاق ص

أخذ خطابا من صديق له كتبه إلى وكيله فى عيذاب بأن يعطى ناصراً كل مايريد ويأخذ منه مستنداً ليضاف إلى حساب الصديق[١] . وكذلك أرسل الأخشيد صاحب مصر إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة أيام أن كان مصروفا[٢] . وكان من وسائل المعاملات الصك ، وهو فى الأصل سند الدين ، وكان الرجل إذا اشترى عقاراً كضيعة مثلا كتب صكا بشرائها[٣] . ويحدثنا ابن حوقل أنه رأى بأودغشت صكا باثنين وأربعين ألف دينار كُتب بدين على محمد بن أبى سعدون من أهل سجلماسة لرجل من أهلها وقد شهد عليه العدول[٤] ، وهذا يدل على أن الورق فى ذلك العصر كان قد بلغ إلى مسافة كبيرة فى وسط الصحراء الكبرى . وكان الصك بالعراق أشبه بالشيك الرسمى عندنا ، وكان للجهبذ مع وجود هذه الصكوك شأن كبير ، ويُذكر لنا حتى فى القرن الثالث الهجرى أن أحد العمال كان يكتب الصكوك لجهبذه[٥] ويذكر عن جحظة الشاعر المتوفى عام ٣٢٤ هـ أن بعض الرؤساء صك له صكا غدائه الجهبذ حتى ضجر فكتب لذلك الرئيس :

إذا كانت صلاتكمُ رقاعا تُخَطَّط بالأنامل والأكفّ
ولم تكن الرقاع تجر نفعاً فما خطى خطوه بألف ألف[٦]

ويُحكى عن هذا الشاعر نفسه — وكان إلى جانب الشعر مغنياً — أن الحسن بن مخلد وهب له خمسمائة دينار أعطاه رقعة بها على صيرفى فتوجه إليه ،

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٦٤ من طبعة شيفر . (٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٢ .
(٣) صحيح البخارى طبعة ١٣٠٩ هـ ج ١ ص ١٠٤ ، وكتاب الأغانى ج ٥ ص ١٥ ، وديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ ، وكان الاصطلاح أن يقال صك فلان على فلان كذا — كتاب الوزراء ص ٧٧ . (٤) ابن حوقل ص ٤٢ ، ٧٠ ؛ وكانت المسافة بين سجلماسة وأودغشت إحدى وخمسين مرحلة (المغرب للبكرى ص ١٥٦ وما بعدها).
(٥) كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى ، وقال هنفا يرجع أصل الحكايات المتعلقة بهارون الرشيد . (٦) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٨٩ .

فأفهمه الصيرفى أن الرسم أنى ينقصه فى كل دينار درهما ، وخيّره بين ذلك وبين أن يركب معه ويقيم عنده يومه وليلته ليشرب ويسمع توقيعه ، فلما أصبح الصباح أعطاه الخمسمائة دينار ؛ وأهدى إليه فوقها خمسمائة درهم[١] . ويُحكى عن جهبذ آخر أكثر حبا للفنّ أنه جاء إليه شاعر ليقبض مالا فلم ينقصه شيئاً ؛ بل أعطاه خمسين ديناراً من عنده ، وذلك لإعجابه بالقصيدة التى مدح الشاعر بها الأمير[٢] . وإذن فقد كانت المهامّ التى يقوم بها الجهبذ كثيرة ، فلا عجب أن يحدثنا ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرافين بمدينة أصفهان مائتا صراف[٣] . وكانوا جميعاً يجلسون فى سوق واحد يسمى سوق الصرافين ، ولم يكن عن الصراف غنى فى سوق البصرة حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م فقد كان العمل بهذا السوق أن كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعا ثم يشترى ما يلزمه ويحوّل ثمنه على الصراف ولا يعطون شيئاً غير رقاع الصرّاف طالما كانوا بالمدينة[٤] . ويظهر أن هـذا هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالى فى المملكة الإسلامية[٥] ، ومما له دلالته أن يظهر ذلك فى مدينة البصرة المشهورة بتجارتها ، والتى تقع على الحدود بين فارس والعراق ، وذلك لأن أهل البصرة واليمن وأهل فارس كانوا أحسن تجار المملكة الإسلامية ، وكان لهم جاليات فى جميع البلاد التى تجلب منها التجارة ، وهم أشبه بالسوابيين والسويسريين فى الوقت الحاضر . ويقول ابن الفقيه الهمذانى فى كتاب البلدان حوالى عام ٢٩٠ هـ — ٩٠٢ م : « وقالوا أبعد الناس نجعة فى الكسب

(١) نفس المصدر ص ٣١٨ — ٣١٩ . (٢) كتاب الديارات ص ٨٨ أ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ٢٥٢ من الترجمة ، وقد مر ناصر خسرو بأصفهان عام ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٠ من النص الفارسى .

(٥) ولكن لم يكن هناك نظام الجيرو giros كالذى بلغ منتهى كماله فى مصر على عهد اليونان (انظر Preisigke, Girowesen im griechischen Aegypten Strassburg 1910 ونظام الجيرو هو نظام الحوالات .

بَصْرِىّ وحميرى ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلابد أن يرى فيها بصريا أو حميريا »[١] ، وكان أهل البصرة ينسبون إلى قلة الحنين إلى وطنهم ؛ حتى يحكى أنه وجد مكتوبا على حجر هذا البيت :

ما من غريب وإن أبدى تجلّده إلا سيذكر عند العلة الوطنا

وقد كتب تحته : إلا أهل البصرة ، فكأن أهل البصرة يحملونها فى رءوسهم[٢] .

وكان الفرس منذ الدهر الطويل قد استوطنوا جدّة وهى فرضة مكة[٣] ، وكان يسكن بمدينة سجلماسة (بجنوب مراكش) كثير من أهل العراق وتجار البصرة والكوفة وبغداد[٤] ، وكذلك كانت الموانى ذات الحركة التجارية القوية بالشام ، وهى طرابلس وصيدا وبيروت ، يسكنها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية ابن أبى سفيان[٥] . وكانت مصرُ بلداً تجاريا[٦] إلا أن المصرى الحق سواء أكان مسلما أم قبطيا لا يمتاز حتى فى أيامنا بالاستعداد الخاص للتجارة ، وكان يعرف المصرى فى القرن الرابع بأنه لا يرى مستوطناً غير مصر إلا فى الندرة[٧] . وفى عصرنا هذا نجد اليونان والمشارقة والفرس وحتى الهنود هم الذين يقتطفون زبدة التجارة المصرية ؛ ومنذ القرن الثانى الهجرى كان بقصبة مصر جالية كبيرة قوية التأثير من أهل فارس ، ومنهم أخذ القاضى مرة ثلاثين رجلا جعلهم ضمن الشهود ، وكان هذا المركز مرموقا لا يقبل فيه إلا من هم أهل للشهادة[٨] . وكان أكبر رجال الغنى والثروة بمصر فى ذلك العصر هو أبو بكر محمد بن على المادرائى ،

---

(١) كتاب البلدان ص ٥١ .
(٢) رسائل المرى تلبية مرجليوث ص ٧٥ . (٣) الأصطخرى ص ١٩ .
(٤) ابن حوقل ص ٤٢ . (٥) جغرافية اليعقوبى ص ٣٢٧ .
(٦) يقول المقدسى (ص ٣٥) من كان مراده التجارة فعليه بمصر أو عدن أو عمان .
(٧) لطائف المعارف ص ١٠١ . (٨) الكندى ص ٤٠٢ .

ولكنه لم يكن تاجراً ، وكان ارتفاع ضياعه يبلغ أربعمائة ألف دينار ، وأصله من أسرة عراقية[١] .

وكان أكبر منافس لأهل العراق وفارس هم اليهود ، وكانت اليهودية على مقربة من أصفهان هى القسم التجارى لهذه المدينة الفارسية الكبيرة[٢] ، وقد صرح بعض المؤرخين أن معظم التجار بمدينة تُستَر كانوا يهوداً ، وكانت تستر أكبر مركز لصناعة البُسُط الفارسية . وكان الذى يقبض على ما يستخرج من اللؤلؤ فى شواطئ جزيرة العرب رجلا من اليهود[٤] ، وكانت بلاد كشمير مغلقة أبوابها فى وجه جميع التجار الأجانب ، ولم يكن يدخلها إلا قليل منهم وخصوصاً من اليهود[٥] . وكانت الحرفة التى اختص بها اليهود فى المشرق أيضاً الاتجار بالعملة ، ويذكر أنه لما فرضت الحكومة على بطريرك الإسكندرية جزية باهظة أواخر القرن الثالث الهجرى حصل على المال اللازم بأن باع إلى اليهود أملاك الكنيسة وجزءاً من الكنيسة المعلقة[٦] . وكان اليهود بين الصيارفة بقصبة مصر حتى إنه فى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م عزر المحتسب طائفة منهم فشغبوا ، فأمر جوهر ألا يظهر يهودى إلا بغيار[٧] ، وفى القرن الخامس الهجرى حُكى لناصر خسرو أن بمصر رجلا يهوديا غنيا يسمَّى أبا سعيد له مال كثير ، وأنه كان على سقف سرايه ثلاثمائة جرَّة من الفضة ، فى كل واحدة منها شجرة مثمرة محمَّلة[٨] . أما فى العراق فإننا نسمع ذكر رجلين من جهابذة اليهود ، وهما يوسف بن فنجاس وهارون بن

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ١٦١ — ١٦٣ .

(٢) المقدسى ص ٣٣٨ ، وبأصفهان اليوم لحمة آلاف يهودى (انظر : Jackson : Peria p.. 20.

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٠٨ .

(٤) انظر فصل الحاصلات .

(٥) كتاب الهند للبيرونى ج ١ ص ٢٠٦ من ترجمة سخاو .

(٦) بطرس بن راهب (فى مجموعة (Corp. Serip. orient· Christ ص ١٣٢ ، وتاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ٤٨ أ .

(٧) الاتعاظ للمقريزى ص ٨٧ .

(٨) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ من النص الفارسى .

عمران ، ومنهما اقترض الوزير عشرة آلاف دينار فى أوائل القرن الرابع الهجرى[١] . ويظهر أن هذين الرجلين كان لهما شبه بنك أو شركة ؛ لأنه لما خُلع الوزير على بن الفرات عام ٣٠٦ هـ وطولب بالمال أقر بأن له عندهما سبعمائة ألف دينار[٢] . وكان يوسف جهبذ الأهواز ، أعنى أنه كان يقدم للدولة مالا معجّلا ينتظر سداده من خراج الأهواز ، وكان إذا أُحضر لتعجيل المال يعتذر عادة بكثرة الأموال التى يلزمه تعجيلها ؛ وأنه لا يتمكن من الدفع[٣] . وكان هذان الجهبذان ومعهما زكريا بن يوحنا يسمّون جهابذة الحضرة ، ويُخاطبون فى المراسلات إلى أبى فلان ؛ فلان بن فلان أبقاه الله ، وهذه هى أقل درجة فى المخاطبات ، فكان يُخاطب بها مثلا صغار عمال البريد[٤] . ثم إن اليهود الذين كان لهم الشأن الأول فى صناعة البُسُط بمدينة تستر ، لم يكونوا صناعاً ، بل كانوا صيارفة[٥] . ويُحكى عن أبى على الإسكافى المتوفى عام ٣٩٤ هـ أنه لما تولّى بغداد من قبل بهاء الدولة ؛ قبض على اليهود وأخذ منهم ألوف دنانير وهرب إلى البطيحة[٦] . وإذن فلا عجب أن نجد فى لغة العرب لفظة مبلّط (وهى اصطلاح مالى يهودى) تستعمل بمعنى المُفْلس[٧] .

وكان الروم والهنود إلى جانب أهل العراق والفرس واليهود هم أنشط تجار المملكة الإسلامية ، وقد نفذ الروم إلى أقصى البلاد ، حتى كانت لهم جالية من التجار فى مدينة جيرونت التجارية بأواسط كرمان[٨] ؛ أما التجار الأرمينيون

---

(١) v. Kremer, Einnahmebudget, s, 343 . (٢) مريب ص ٧٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٧٨ . (٤) نفس المصدر ص ١٥٩ ، وتذكر المصادر اليهودية يوسف بن فنحاس وختنه نتيرا من بين أكبر رجال اليهود ببغداد (انظر : Graetz, Gesch, der juden, V, 4 Aufl. s. 277 . (٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٠٨

(٦) المنتظم لابن الجوزى ص ١٥٠ ا . (٧) انظر مادة بلط فى تاج العروس البلطة الفلس وأبلط الرجل ذهب ماله .

(٨) ولا يذكر هنا إلا منذ القرن السادس الهجرى ، (انظر : Houtsma, Seldschuken, I, 48 .

لم يكن لهم شأن يذكر فى أى مكان ؛ بل نرى من هذا الشعب طائفة تتبوأ مناصب حربية عليا فى الدولة البوزنطية[١] وكان منهم جند وقواد للفاطميين[٢] منهم أبو النجم أمير الجيوش الذى حكم بلاد الفاطميين فى القرن الخامس الهجرى[٣]، ولم تتغير هذه الحال إلا منذ العصر التركى .

وكانت التجارة مركزها الأسواق ، شأنها شأن الصناعة ، وكانت كل طائفة من التجار يجلسون معاً فى قسم واحد ، وكانوا يمكثون إلى مابعد الظهر ثم يأكلون فى أحد المطابخ أو يستحضرون شيئاً إلى دكاكينهم ، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا فى المساء[٤] . وكان للهراسين فى العراق موضع فوق الدكاكين فيها الحصر والموائد والمرى والخدام والطشوت والأباريق والأشنان ، فإذا انحدر الرجل دفع دانقا[٥] . وقد وصف الهمذانى فى إحدى مقاماته أكلة أكلها هو وأبو زيد فى أحد المطابخ[٦] . وكانت الأكلة بعشرين (ربما كانت عشرين دانقاً أو عشرين درهماً) ، وكان الطباخون فى ذلك العصر أيضاً يعولون على مظهر طبيخهم وتأثيره ، ويحكى عن مالك بن دينار المتصوف المعروف أنه قال : أخوة هذا الزمان مثل مرقة الطباخ فى السوق طيبة الرائحة لا طعم لها[٧] .

وكانت الدكاكين فى مصر وآسيا الغربية تمتد على طول الشوارع من

---

(١) Oeizer, Kulturgeschichte, s, 80 .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٩٤ . (٣) نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٤) كان الجهبذ ينتهى عمله بحلول الظهر (الإرشاد ج ١ ص ٣٩٩) ، وكانت هرمز مجمع تجارة كرمان وفرضة البحر ، وهى وبندر عباس فى أيامنا تنتابها أفظع أنواع الحر ، ولذلك لم يكن بها مساكن كثيرة ، وإنما كانت مساكن التجار متفرقة فى قرى تمتد نحواً من فرسخين (الأصطخرى ص ١٦٦) (٥) المقدسى ص ١٢٩ .

(٦) مقامات الهمذانى ص ٥٧ وما بعدها من طبعة بيروت .

(٧) الصداقه والصديق للتوحيدى طبعة القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٤٣ .

الجانبين ، على كل جانب صف منها ، ولذلك لما أنشئت بغداد لم يجعل لسوقها مكان مخصص له ؛ ولهذا أيضاً تذكر «سويقة عبد الوهاب» التى كانت ببغداد كما يذكر الشيء الغريب الذى يستلفت النظر[١] ، أما أسواق المدن فقد كانت — فى مبدإ أمرها وعندما تسمت بهذا الاسم — أسواقا أسبوعية تقام فى أيام معينة من الأسبوع ، فمثلا كان السوق بشرق بغداد يوم الثلاثاء ، وكان سوق القيروان بعقد فى يومى الأحد والخميس[٢] ، وكان سوق العسكر (خوزستان) يوم الجمعة ، وكان بين العسكر هذه وبين خان طوق ست مدن تسمى كل منها بيوم من أيام الأسبوع المتتالية وهو الذى يعقد فيه سوقها[٣] ، وربما كان قوام الكثير من مثل هذه المدن عبارة عن دكاكين ثابتة لا تمتلئ وتعمر إلا فى يوم السوق ، مثل سوق الأربعاء فى الجزائر الذى كان أول من وصفه الأمير بوكلير[٤] ، أو مثل سوق بوعان الكبير باليمن الذى يمكن أن يمثله الإنسان لنفسه بأن يتصور صفين أو ثلاثة من الدكاكين التى تشبه الأكواخ ، يجتمع فيها العرب يوم السوق فتراهم يتساومون[٥] وهم مستقرون .

أما فى المشرق فقد استلزمت العادة جمع الدكاكين صفوفاً فى مكان واحد ، كالدار التى بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون ، وكانت مركز نسج الكتان ، وكان دخلها فى كل يوم عشرة آلاف درهم[٦] ، وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقا عند مدينة جامع رام هرمز ، وكانت غاية فى الحسن ، نظيفة قد بُلطت وظُلّلت وزُوِّمت وبُربقت وجُعل عليها دروب تغلق فى كل ليلة[٧] . أما فى غرب

(١) تاريخ بغداد طبعة سالمون ص ٢٨ . (٢) المقدسى ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وكان على وادى درعة بمراكش سوق فى كل يوم من أيام الجمعة لكثرة الناس عليه (المغرب للبكرى ١٥٢) .
(٤) Pückler Semilasso in Africa, II, 107 .
(٥) Glaser, Petermanns Mitteilungen, 1886, s. 41 .
(٦) المقدسى : ٤٣٤ . (٧) نفس المصدر : ص ٤١٣ — ٤٢٥ .

المملكة الإسلامية فلم يكن هناك فنادق إلا للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة ، وكانوا ينامون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ، ويغلقون عليهم بأقفال رومية ، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم الفنادق (من الكلمة اليونانية pandokeion وكانت توجد خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[١] .

وكان رأس المال والترف مرتبطين فى بلاد الإسلام ارتباطاً وثيقاً شأنهما فى جميع البلاد ، وكان كبار التجار وأصحاب الصناعات هم المشتغلون بتجارة الترف والنعيم ، وينصح المقدسى بنصيحة يعرف فيها الإنسان خفة ماء بلد أو ثقله فيقول : « إذا أردت أن تعرف خفة ماء بلد فاذهب إلى البزازين والعطارين فتصفح وجوههم ؛ فإن رأيت فيها الماء فاعلم أن خفته على قدر ما ترى من نضارتهم ، وإن رأيتها كوجوه الموتى ورأيتهم مطامنى الرءوس فعجل الخروج منها »[٢] . وإذن فالمقدسى يعتبر أن أقرب التجار إلى الترف والنعيم فى القرن الرابع هم البزازون والعطارون ، وكانوا بمدينة جامع رام هرمز يسكنون سوقا جميلة غاية فى الحسن بناها عضد الدولة[٣] ، ومن أمثال القرن الثالث الهجرى أن أحسن التجارة تجارة البزّ .

وأحسن صنعة صنعة المرجان[٤] ، وكان ابن مجاهد المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م يقول : « من قرأ لأبى عمرو ، وتمذهب للشافعى ، واتجر فى البز ، ورورى شعر ابن المعتز ، فقد كمل ظرفه »[٥] ، وكذلك بين أبو نصر الفارابى (المتوفى عام ٣٣٩ هـ —

(١) نفس المصدر ص ٤٢٥ ، وكانت هذه المبانى تسمى خانات ، وفيا وراء النهر كان الواحد يسمى تيا (مقدسى ٣١) ، والدكان الواحد يسمى مخزن [الكلمة الأوروبية magasin] والمخزن الكبير يسمى خانبار وجمعها خانبارات ، (المنتظم ص ١٨٠ ب ، ١٨٢ أ) .

(٢) المقدسى ص ١٠١ . (٣) نفس المصدر ص ٤١٣ .

(٤) ونسب هذا القول إلى النبى عليه السلام كما نسب غيره ، (مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٠) . (٥) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٠٣ .

٩٥٠ م) الصناعات من أشرفها إلى أخسها : تجارة البز ، وصناعة النسيج (وكانت حتى ذلك العصر معتبرة من الصناعات الخسيسة ، وصناعة العطارين ، ثم صناعة الكناسين[١] ، وكان أغنى تجار مصر وأجلهم حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م عفان بن سليمان البزاز ، فلما مات أخذ الأخشيد من ماله نحو مائة ألف دينار[٢] . وكانت أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب الدهون والخزازين والجوهريين بعضها إلى جانب بعض ببغداد[٣] .

وكانت طريقة التأجير شائعة شيوعاً كبيراً ، فكان الناس لا يستأجرون فى المدن المساكن فقط ؛ بل كانوا يستأجرون الأثاث أيضاً ، ويحكى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر من النحاس ، وكانت تؤجرها كل قدر بدرهم فى الشهر[٤] ، وكانت الماشطة تحضر إلى حفلات الزفاف ومعها أصناف الزينة[٥] ، وكانت البسط وأنواع الفرش تستأجر فى مثل هذه[٦] المناسبات .

وكان البيع والشراء يتمان « بالمقابضة »[٧] وذلك بحسب الشرع ، على أن من الفقهاء المحدثين من يرى أن البيع لا يكون صحيحاً إلا إذا كان مصحوبا بقول صريح على من الجانبين[٨] ، وهذا ما رأيته بنفسى فى صحراء الشام : فى أثناء المساومة بين الطرفين يضع أحدهما يمينه فى يمين الآخر فإذا قال البائع : بعت ، وقال الشارى : اشتريت ؛ ترك كل يد صاحبه وتم البيع والشراء ، ولم ينس ابن المعتز

---

(١) المدينة الفاضلة للفارابى طبعة ديتريصى ص ٩٠ .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ١٧ . (٣) الأوراق للصولى ص ٩١ من مخطوط باريس . (٤) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارابى .

(٥) Quatremére, Hist. des Uamlouks p 247 .

(٦) الأغانى ج ٥ ص ١١٩ . (٧) الجامع الصغير على هامش كتاب الخراج ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٨) Sachau, Muhammedanisches Qecht. s. 278 .

الشاعر المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م فى كلامه عن المصادرين أن يذكر كيف كانوا يعذبون حتى يبيعوا ضياعهم وأنهم كان يحلّفون بيمين البيعة[١] .

على أنه فى مملكة شاسعة كالمملكة الإسلامية التى كانت تضم كل درجات الحضارة لابد أنه كان بها جميع أنواع التجارة بعضها إلى جانب البعض فى وقت واحد ، ولكن الجغرافيين فى ذلك العصر خاصة لم يهتموا بهذا للأسف ، وكان الفقهاء من جهة أخرى يعالجون مسائلهم النظرية العقيمة ، حتى لا نجد بين أيدينا إلا قليلا من المعلومات المؤكدة ، فمثلا كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقاصى خراسان مما يلى الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة ، فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب ، فإذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب[٢] . وقد استلفت نظر « ربى بتاحيا » فى العراق أن المسلمين أهل لأن يوثق بهم كل الثقة ، فكان إذا جاء إلى هناك تاجر وضع أمتعته فى بيت رجل من الناس ورجع ، فيحملون هذه الأمتعة إلى جميع الأسواق للبيع ، فإذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها ؛ وإلا حملوها إلى جميع السماسرة ، فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل ، وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة[٣] .

وقد حرمت الشريعة الإسلامية منذ البداية التعامل بالربا أشد التحريم ، كما حرمت المضاربة فى مواد الطعام ، وقد أنفق الفقهاء جزءاً كبيراً من جهودهم لسد أصغر الأبواب التى قد يلجأ إليها الناس فراراً من هذا التحريم ، ولكن اليهود والنصارى تعدوا حدود الشرع ، ففى أول القرن الرابع الهجرى اقترض الوزير

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ . (٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ٩٢ — ٩٣ ، J. Marquart, Beninsammlung, s. C L X X X I. F .

(٣) Petachjâ aus Regensburg, J A. 1831, p. 373 .

من يوسف بن فنجاس وهارون بن عمران الجهبذين اليهوديين عشرة آلاف دينار بربح ثلاثين ديناراً فى كل مائة[١] . وقد ألّف حوالى عام ٨٠٠ م كتاب تشريع للنصارى أُجيز فيه أن يتعاملوا فيما بينهم بربح يبلغ العشرين فى المائة[٢] . وكان من صور المرابات الخاصة أن يقدّم الناس للمصادرين وهم يعانون التعذيب وضروب العسف مالاً وهم فى هـذا الموقف الحرج ، وكانوا ينالون فى بعض الأحيان من وراء ذلك عشرة عن الواحد[٣] . وعلى هذا فقد كانت الأمة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى قد بعدت كثيراً عن شريعة الإسلام ، بل يُذكر لنا أنه كان فى عصر المأمون تأجران متواخيان فى شراء غلات العراق ، فأشرفا على ربح عشرة آلاف ألف درهم ، ثم اتضع السعر فخسرا ستة آلاف ألف درهم[٤] ، وفيما عدا هذا كانت الظروف الزراعية الخاصة تستلزم بعض صفقات المضاربة على الحصاد والدرس وجنى الثمر ؛ وكان الفقهاء يترخصون فى ذلك متجاهلين ، بشرط أن يكون ذلك على ضمان المشترى[٥] . ويحكى لنا «فانسلب» أن الناس كانوا بمصر حوالى عام ١٦٦٤ م يخالفون القوانين التى تحرم الربا مخالفة ظاهرة كما هو الحال عندنا ، فكان المقترض يضطر إلى أخذ بضائع رديئة النوع بالسعر الباهظ .

---

(١) انظر : V. Kremer, Einnahmebudget, s. 343 .

(٢) Sachau, Syrische Rechtsbücher, II s. 157 .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٥٨ .

(٥) الجامع الصغير على هامش كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٨ .

(٦) Wanslep, Reschreibung Aegyptens, s. 63 .